صناعة القاموس الصوفي:
رسالة اصطلاحات محيي الدين بن العربي (ت 638هـ) أنموذجا

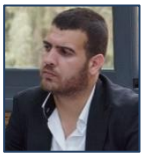

د. رشيد الاركو
باحث في اللغة والفكر
الأكاديمية الجهوية للتربية والتكوين لجهة الشرق
المغرب

ملخص:

إن القصد العام من بحثنا الموسوم بصناعة القاموس الصوفي: رسالة "اصطلاحات" محيي الدين بن العربي أنموذجا، هو بيان أن "اصطلاحات" قاموسٌ متخصص في المصطلح الصوفي، وقد توسلنا لبلوغ هذا القصد بمطالب ستة فضلا عن المقدمة والتركيب؛ فأما المقدمة فقد شددت على أهمية العناية بالمصطلح عامة والمصطلح الصوفي خاصة. وأما المطلب الأول فوضح مصطلحات أساس في البحث وهي: "المصطلح"، و"أهل التصوف"، ورسالة "اصطلاحات". وأما المطلبان الثاني والثالث فقدما ملاحظات على مقدمة "اصطلاحات" مع التوقف عند دواعي تأليفها. وأما المطالب الثلاثة الأخيرة فكشفت عن منهج ابن العربي في "اصطلاحات" من خلال التوقف عند الركائز التي تقوم عليها الصناعة القاموسية وهي بالتبع: مادة القاموس، وترتيب المداخل، والتعريف. وأما التركيب فقد استجمع استنتاجات البحث.

كلمات مفتاحية: رسالة اصطلاحات، محيي الدين بن العربي، القاموس الصوفي، المصطلح، مادة القاموس، ترتيب المداخل، التعريف.

الاستشهاد المرجعي بالدراسة:

انميرات، الاركو. (2024، أكتوبر). صناعة القاموس الصوفي: رسالة اصطلاحات محيي الدين بن العربي (ت 638هـ) أنموذجا. مجلة البحث في العلوم الإنسانية والمعرفية، المجلد 1، العدد 7، السنة الأولى، ص 510-529.

Abstract:

The general intent of our research, entitled The Making of a Sufi Dictionary: Muhyi al-Din Ibn al-'Arabi's Risālat «Iṣṭilāḥāt» as an example, is to show that «Iṣṭilāḥāt» is a dictionary specialized in Sufi terminology. To achieve this goal, we used six demands in addition to the introduction and synthesis; the introduction emphasized the need to pay attention to terminology in general and Sufi terminology in particular; the first demand explains the terms that are essential to the research, namely: “terminology”, “people of Sufism”, and the “Risālat Iṣṭilāḥāt”. The second and third demands provide remarks on the introduction to “Iṣṭilāḥāt” and the reasons for writing it. and the last three demands revealed Ibn al-'Arabi's approach in the “Iṣṭilāḥāt”, by stopping at the pillars on which the Lexicography is based, namely: Lexicon material, Arrangement of entries, and Definition. The synthesis summarized the results of the research.

Keywords : Risālat Iṣṭilāḥt, Muhyi al-Din Ibn al-'Arabi, Sufi Dictionary, Terminology, Lexicon material, Arrangement of entries, Definition.

مقدمة

إنَّ دراسة المصطلح بشكل عام مغامرة، تقتضي من الباحث التَّسلح برؤية منهجية واضحة، وأما دراسة المصطلح الصوفي فمغامرة مزدوجة، تُلزم الباحث توسيعَ رؤيته وتكثيف مقاربات اشتغاله، لأنَّه مقبل على حقل ملغوم بالتناقضات، فكلَّما اتسعت رؤية أهل التصوف ضاقت عبارتهم[1]، ولعلَّ هذا ما قصده أبو العباس بن عطاء (ت 309هـ) حين أنشد:

إِذَا أَهْلُ العِبَارَةِ سَاءَلُونَا ... أَجَبْنَاهُم بِأَعْلَامِ الإِشَارَةِ
نُشِيرُ بِهَا فَنَجْعَلُهَا غُمُوضًا ... تُقَصِّرُ عَنْهُ تَرْجَمَةُ العِبَارَةِ
ونَشْهَدُهَا وَتَشْهَدُنَا سُرُورًا ... لَهُ فِي كُلِّ جَارِحَةٍ إِثَارَةِ
تَرَى الأَقْوَالَ فِي الأَفْعَالِ أَسْرَى ... كَأَسْرِ العَارِفِينَ ذَوِي الخَسَارَةِ[2]

وليس من قبيل النافلة العناية بالمصطلحات؛ لأنَ دراستها في نظرنا من أوجب الواجبات وأسبقها وآكدها على كل باحث في أي فن من فنون التراث[3]. ولأن تحديد المفاهيم والمصطلحات مسألة ضرورية لضبط وتنظيم العملية الفكرية والتحليلية التفسيرية، وتأطير ممارسات الفكر الاجتماعي في سياق منهجي بعيدا عن الفوضى والشتات الذهني[4].

ولعلَّ الدارسة المنهجية للمصطلحات كما أصّل لها الشاهد البوشيخي، لا ترضى بغير دراسة مصطلحات المؤلَّف قبل المؤلِّف، والمؤلِّف قبل العصر، والعصر قبل التاريخ[5]. وهذا ما نبتغيه في هذا البحث، إدراكا بأنَّ دراسة مصطلحات محيي الدين بن العربي (ت 638هـ) تتطلب مجهودا مضاعفا وعملا جماعيًّا، لهذا اقتصرنا على دراسة مصطلحات رسالةٍ من رسائله، بغية المساهمة بقسط متواضع في مشروع "المصطلحات الصوفية".

---

[1] عبد الجبار النفري، المواقف والمخاطبات: نصوص فلسفية، تحقيق: آرتر أربري، تقديم وتعليق: عبد القادر محمود، مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب، ط1، 1985، ص6.

[2] أبو بكر محمد الكلاباذي، التعرف لمذهب أهل التصوف، ضبطه وعلق عليه وخرج أحاديثه: أحمد شمس الدين، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 1993، ص103.

[3] الشاهد البوشيخي، مصطلحات نقدية وبلاغية في كتاب البيان والتبين للجاحظ، دار القلم للنشر والتوزيع، الكويت، ط2، 1995، ص13.

[4] عبد الوهاب المسيري، في الخطاب والمصطلح الصهيوني: دراسة نظرية وتطبيقية، دار الشروق، القاهرة، ط1، 2003، ص23.

[5] الشاهد البوشيخي، مصطلحات نقدية وبلاغية في كتاب البيان والتبين للجاحظ، ص14.

1) مدخل مفهومي

إن لفظة "مصطلح" مشتقة من الفعل "اصطلح" الذي من دلالاته: زوال الخلاف بين القوم، والتصالح، والتعارف على شيء ما والاتفاق عليه، والتواطؤ عليه والمواضعة[1]. وتشير هذه الدلالات إلى خصيصة مرتبطة بالمصطلح ولصيقة به، وهي خصيصة الاتفاق، غير أنَّ بعض الباحثين قللوا من شأن الاتفاق ولم يعدُّوه شرطا في تكوين المصطلح واستندوا في ذلك إلى الواقع الفعلي للمصطلحات؛ إذ لا يشترط أن يكون المصطلح ناشئا عن اجتماع طائفة من العلماء واتفاقهم على دلالة لفظة على معنى معين، بل من الراجح أنَّ المصطلح ينشأ على يد عالم من العلماء، ثم يأخذ طريقه إلى الشيوع، فإمَّا أنْ يستقر ويثبت ويشيع، وإمّا أن يترك ويستعاض عن غيره[2].

ومسألة الاتفاق في تكوين المصطلح مسألة ملحة وضرورية لفهم نشأة المصطلح الصوفي، خاصة أنَّ المتصوفة يعبرون عن معانٍ ومشاهد وإحساسات نفسية، وهذه المعاني والمشاهد والإحساسات تتغير في كل تجربة وجدانية ذوقية للمتصوف نفسه بله عند المتصوفين الآخرين. لهذا فتجدد أحوال الصوفي ومقاماته ومشاهدته يجعل من لغته متجددة تابعة لما يتذوقه. ومن ثمة فالمصطلح الصوفي مصطلح زئبقيٌّ تتغير دلالته حسب التجربة العرفانية.

ومن دلالات اصطلح -كما أشرنا- التَّصالح، فما العمل إنْ كان من يسك المصطلح لم يشأ التصالح معنا؟ أو كان يسك المصطلح لتغييبنا أو تقية منا، أو يسك مصطلحا تكمن وراءه مفاهيم وقيما تتنافى مع مفاهيمنا وقيمنا ويتبنى نموذجا تحليليًّا معرفيًّا مخالفا لنماذجنا التحليلية؟ فالمصطلح أيُّ مصطلح يحتوي على وجهة نظر من سكَّه وزاوية رؤيته واجتهاداته[3]، ولعلَّ الأبيات السابقة تجيب قليلا ما عن بعض هذه الأسئلة، وكذلك ما دبجه القشيري (ت 465هـ) في رسالته يجيب عن بعضها الآخر، إذ يقول: من المعلوم أنَّ كلَّ طائفة من العلماء لهم ألفاظ يستعملونها، انفردوا بها عمن سواهم، وتواطؤوا عليها لأغراض لهم فيها من تقريب الفهم على المخاطبين بها، أو تسهيل على أهل تلك الصنعة في الوقوف على معانيها بإطلاقها. وهذه الطائفة مستعملون ألفاظا فيما بينهم يتم بها الكشف عن معانيهم لأنفسهم، والستر على من يباينهم في طريقتهم، لتكون معاني الألفاظ مستبهمة على الأجانب. غيرة منهم على أسرارهم أن تشيع

[1] سعاد كوريم، الدراسة المفهومية: مقاربة تصورية منهجية، مجلة إسلامية المعرفة، العدد 60، ربيع2010، ص46.
[2] مصطفى طاهر الحيادرة، من قضايا المصطلح اللغوي العربي، عالم الكتب الحديثة، عمان، ط1، 2003، ص14.
[3] عبد الوهاب المسيري، في الخطاب والمصطلح الصهيوني: دراسة نظرية وتطبيقية، صص23-25.

في غير أهلها، إذ ليست حقائقهم مجموعة بنوع تكلف، أو مجلوبة بضرب تصرف، بل هي معانٍ أودعها الله تعالى قلوب القوم، واستخلص لحقائقها أسرار قوم[1].

والقصد بأهل التصوف أو أهل الله كما يسميهم ابن العربي[2] (ت 638هـ)، تلك الجماعة التي تعاطت التصوف بالشروط التي حددها المحققون منهم للتصوف، وهذه الجماعة لها لغة خاصة بها تواطأت عليها فيما بينها.

وأما القصد باصطلاحات، فرسالة ألَّفها ابن العربي بناءً على طلب أحد تلامذته أثناء إقامته بمدينة (ملطية) بالأناضول، وقد أتمَّها في اليوم العاشر من شهر صفر سنة 615 من الهجرة، ولهذه الرسالة نسخ عدة بعناوين عدة، ولكننا اعتمدنا في بحثنا على النسخة المرفقة بتعريفات الجرجاني (ت 816هـ)، والمعنونة بـ: "اصطلاحات الشيخ محيي الدين العربي"، وقد جاءت في سبع عشرة صفحة.

ويتضح من خلال هذا المدخل أنّ غرض البحث هو دراسة المعجم اللغوي عند جماعة لغوية متميزة هم المتصوفة، انطلاقا من أنموذج نرى أنَّه حقيق وممثل لهذه الجماعة، هو ابن العربي في رسالته المعنونة بـاصطلاحات.

2) ملاحظات على مقدمة الرسالة

تعدُّ مقدمة الكتاب أو الرسالة من العتبات التي تقرب المؤلف من القارئ والقارئ من المؤلف. فهي آخر ما يكتبه المؤلف ومن أول ما يطالعه القارئ، لهذا اعتنى المؤلفون بمقدمات كتبهم وأولوها العناية التي تستحق. وقد حصر بعض الباحثين مكونات المقدمة في العناصر الآتي[3]:

- البسملة، والحمدلة، والتصلية، والتسليم.
- دواعي التأليف وجنسه.

[1] أبو قاسم عبد الكريم القشيري، الرسالة القشيرية، تحقيق: معروف مصطفى زريق، المكتبة العصرية، بيروت، ط1، 2001، ص31.

[2] قال الباحث المغربي عبد الإله بن عرفة: "من الأخطاء الشَّائعة التي يصرُّ عليها بعض أصحاب المطابع ممَّن ينشرون كتب الشيخ الأكبر، كتابة اسمه ابن عربي مع أنَّه بالألف واللام (أُنظر صور مخطوطات كتبه، وما جاء فيها من تنصيص على اسمه بالتعريف) ولا معنى أنْ يُقال إنَّ هذا اصطلاح مشرقي للتَّمييز بينه وبين ابن العربي المعافري (ت 543هـ)، فلا أحد يخلط بينهما، ومن الأدب والأمانة العلمية أنْ يُدعى المرْءُ باسمه، لا أنْ يحرف وينكر، كما في هذه الحال مع اسم الشيخ، فإثبات التعريف له من باب الواجب المتعين". وعليه وجب التعامل مع ابن العربي بالاسم الذي سمي به وأثبته في كتبه وفي ترجماته لنفسه ولمن له صلة به. وبناء على هذا كله فقد اعتمدنا في هذا البحث اسم (ابن العربي) لا غير. انظر، ابن العربي، الديوان الكبير، تحقيق: عبد الإله بن عرفة، دار الآداب، بيروت، ط1، 2018، ج4، ص17.

[3] مصطفى سلوي، عتبات النص: المفهوم و الموقعية والوظائف، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية، وجدة، ط1، 2003، ص29.

- المصادر أو مكتبة التأليف.
- تقريظ التأليف.
- نقد المصادر السابقة.
- زمان التأليف ومكانه.
- الحمد والشكر.

وانطلاقا من هذه المكونات يمكن استخراج نوعين من المقدمات: فأما أولاها فهي مقدمات موسعة يحيط فيها المؤلّف بمكونات المقدمة جميعها أو على الأقل أغلبها، وأما ثانيها فمقدمات مضيقة يقتصر المؤلف فيها على المكونات الأولى (البسملة والحمدلة والتصلية والتسليم، ودواعي التأليف وجنسه)[1]، وقد يضيف مكونا آخر أو ينقص. وهذه المقدمات بنوعيها تشترك فيها أغلب مقدمات الكتب وخصوصا التراثية منها.

وقد جاءت مقدمة "اصطلاحات الشيخ محيي الدين" مختصرة جدًّا، إذ لا تتجاوز أسطرها أربعة عشر سطرا، فصّلها ابن العربي كالآتي: الأسطر الأربعة الأولى جعلها للبسملة والتصلية والحمدلة والتسليم، ثم تحدث بعد ذلك عن سبب تأليفه الرسالة في ستة أسطر تقريبا، ثم أشار إلى بعض الملاحظات الخاصة بمتنه في أربعة أسطر، وختم بذكر تأييد الله ونفعه له.

ويظهر من خلال هذا التوصيف الشكلي للمقدمة، أن ابن العربي كتب مقدمته على طريقة السابقين؛ وبالتالي يمكن إدراج هذه المقدمة ضمن النوع الثاني من المقدمات التي ذكرناها آنفا تحت اسم "مقدمات مضيقة" لعدم إدراجه باقي مكونات المقدمة.

وإذا أمعنا النظر في المقدمة نجد أنَّه أشار إلى جنس مؤلفه وحدد موضوعه بدقة حين قال: "أشرتَ إلينا بشرح الألفاظ التي تداولها الصوفية"[2]. فهو يبين من خلال هذا القول ميدان اشتغاله وهو التصوف، وعلى الخصوص مجال المصطلح الصوفي، وبالتدقيق أكثر شرح المصطلحات الصوفية المتداولة بين المتصوفين وغير المعروفة عند أهل الرسوم، وبناء على هذا، فرسالة ابن العربي هي قاموس متخصص مختصر في المصطلح الصوفي.

[1] مصطفى سلوي، عتبات النص: المفهوم و الموقعية والوظائف، صص24-25.

[2] الشريف الجرجاني، التعريفات ويليه اصطلاحات الشيخ محيي الدين العربي، مكتبة لبنان، بيروت، طبعة جديدة، 1985، ص283.

3) دواعي تأليف الرسالة

ترتبط دواعي التأليف ارتبطا وثيقا بالسؤال: لماذا؟ وهذا السؤال يتطلب جوابا أو بمعنى آخر تبريرا لإقدام المؤلف على كتابته الكتاب، ونحن نعلم من خلال اطلاعنا على عدد مهم من مقدمات الكتب سواء القديمة أو الحديثة أنَّ جلَّها يتضمن سبب التأليف، وكأننا بهذا نفهم أنَّ فعل الكتابة شيء غير عادٍ لكي يبرره متعاطيه؛ وبالتالي يمكن الاستنتاج أنَّ فعل الكتابة يتطلب في أغلب الأحيان تبريرا، وهذا التبرير هو فعلٌ موازٍ للكتابة. وعليه فالتبرير أيضا يتطلب حضور شخص مغاير للمؤلف لكي يبرر له المؤلف هذا الفعل، وهو المتلقي، إذن فالتبرير هو محاولة إقناع المؤلِّف المتلقي بشرعيته في الكتابة في موضوع ما، ومن ثمة فالغرض من التبرير هو إضفاء الشرعية على فعل الكتابة[1]، لهذا نجد كثيرا من المؤلفات ألَّفها أصحابها بسبب إلحاح الناس أو طلبهم أو سؤالهم، و هذه المحفزات (الإلحاح، والطلب، والسؤال) هي بمثابة منح الشرعية للمؤلف فيما سيكتبه، وإذا كانت هناك الشرعية سَهُلَ على الكتاب أنْ يمارس فعل الكتابة دون خوف لأنَّه يملك التبرير وبالتالي يملك الشرعية[2]، وهذا ما نجده في رسالة "اصطلاحات الشيخ محيي الدين" فهو لم يكتب من تلقاء نفسه بل كتب تلبية لطلب من صفيه الكريم[3]، وقد أكد ابن العربي هذا الأمر بقوله: " وعليك أيُّها الولي الحميم، والصفي الكريم...فإنَّك أشرتَ إلينا بشرح الألفاظ...فأجبتك إلى ذلك"[4].

ويمكن تقسيم دواعي التأليف إلى قسمين: دواعٍ ذاتية ودواعٍ موضوعية، فأما الدواعي الذاتية فتتعلق بشخص المؤلف أو من كانت له علاقة بالمؤلف وهي نوعان حقيقة أو متخيلة[5]، وأما الدواعي الموضوعية فهي كل ما تعلق بموضوع التأليف أو جنسه أو فكرته[6].

---

[1] لم يؤلف بيدبا الفيلسوف كتاب كليلة ودمنة من تلقاء نفسه، ولم يؤلفه محبة في التأليف، وإنما استجابة لرغبة عبر عنها دبشليم. لابد إذن، أثناء التحليل، من الانتباه إلى مشاركة المتلقي في إنجاز الكتاب؛ فلولا المتلقي لما كان هناك سرد ولا تأليف. انظر، عبد الفتاح كيليطو، الحكاية والتأويل: دراسات في السرد العربي، دار توبقال للنشر، الدار البيضاء، ط1، 1988، ص35.

[2] من بواعث التأليف عند ابن العربي؛ الاستجابة لفتح أو إلهام رباني، فهو يعتقد أنَّ الحق تعالى يملي له على لسان ملك الإلهام جميع ما يسطره.

[3] "عبد الله بن بدر الحبشي" أقرب الناس إلى ابن العربي وأحبهم إلى قلبه، فهو التلميذ النجيب والصاحب المخلص والرفيق الملازم له منذ لقيه بفاس، وقد خصه بالخطاب في كثير من كتبه ورسائله؛ حيث إنّه عند قراءتنا لعبارات "أيها الولي أو يا بني" في تصانيف ابن العربي ففي الغالب يكون المقصود هو بدر الحبشي". انظر، ساعد خميسي، ابن العربي المسافر العائد، الدار العربية للعلوم ناشرون، منشورات الاختلاف، الجزائر ط1، 2010، صص25-26.

[4] الجرجاني، التعريفات ويليه اصطلاحات الشيخ محيي الدين العربي، ص283.

[5] مصطفى سلوي، عتبات النص: المفهوم و الموقعية والوظائف، ص38.

[6] نفسه، ص38.

وقد جمعت مقدمة ابن العربي الداعيين الذاتي والموضوعي، تجلى الذاتي في طلب (صفيه)، وظهر الموضوعي في قول ابن العربي: " فإنّك أشرتَ إلينا بشرح الألفاظ التي تداولها الصوفية المحققون من أهل الله بينهم، لـمّا رأيت كثيرا من علماء الرسوم، وقد ساءلونا في مطالعة مصنفاتنا، ومصنفات أهل طريقنا مع عدم معرفتهم، بما تواطأنا عليه من الألفاظ التي بها يفهم بعضا عن بعض كما جرت عادة أهل كل فن من العلوم"[1].

4) مادة الرسالة/القاموس

أشار ابن العربي في مقدمة رسالته إلى أمور مهمة تتعلق بالمادة التي سيشرحها إذ قال: "فإنك أشرتَ إلينا بشرح الألفاظ التي تداولها الصوفية المحققون...ولم أستوعب الألفاظ كلها، ولكن اقتصرت على الأهم فالأهم، وأخرمت عن ذكر ما هو مفهوم من ذلك عند كل من ينظر فيه بأقل نظرة، لما فيها من الاستعارة والتشبيه، وقد أوردنا ذلك لفظة لفظة[2].

يتبين بناءً على هذا المقطع أن ابن العربي يعي أنَّ رسالته لا تشمل كل المصطلحات الصوفية، بحيث اقتصر على شرح أهمَّ المصطلحات الصوفية؛ مميزا في رسالته بين المصطلح الصوفي الأهم والمهم؛ بمعنى آخر المصطلح المشكل أو غير المفهوم، والمصطلح الصوفي المفهوم، ويعي كذلك أن بعض المصطلحات الصوفية مشوبة بالاستعارة والتشبيه، وأن المصطلحات التي يشرحها متداولة بكثرة عند الصوفية المحققين وليست مهجورة أو قليلة التداول؛ بمعنى أنه يميز بين مصطلحات الصوفية المحققين ومصطلحات الصوفية غير المحققين بالتنصيص على مصطلحات الصوفية المحققين وإفرادها بالتأليف والبيان والشرح.

وبين ابن العربي كذلك في خاتمة رسالته أمرين مهمين متعلقين بالمادة إذ قال: "وجملة هذه الأسماء مائتين واثنتين"[3]. وبناءً على هذا التنصيص يتبين أن عدد الأسماء التي شرحها ابن العربي في رسالته هي مائتان واثنتان، وأن كل هذه الكلمات المشروحة أسماء. ومن ثمة فرسالة ابن العربي هي قاموس مختصر في المصطلح الصوفي؛ لأنّ جلَّ المصطلحات الواردة فيه مصطلحات متداولة عند أئمة التصوف قبل ابن العربي وخاصة عند سهل التستري (ت 283هـ)، وأبي طالب المكي (ت 386هـ)، وأبي حامد الغزالي (ت 505هـ).

[1] الجرجاني، التعريفات ويليه اصطلاحات الشيخ محيي الدين العربي، ص283.
[2] نفسه، صص283-284.
[3] الجرجاني، التعريفات ويليه اصطلاحات الشيخ محيي الدين العربي، ص298.

وإذا تأملنا مصطلحات ابن العربي في رسالته سنجد أنها جاءت وفق البُنى الآتية: مصطلحات مفردة مثل الهاجس، والإرادة، والمريد، والمراد، والسالك، والمسافر، والسفر، والطريق. ومصطلحات ذات تركيب إضافي مثل عين التحكم، وجمع الجمع، وعلم اليقين، وعين اليقين، وحق اليقين. ومصطلحات ذات تركيب وصفي مثل الدرة البيضاء. ومصطلحات معطوفة بالواو مثل العارف والمعرفة، والعالم والعلم. ومصطلحات ذات تركيب معقد[1] مثل العدل والحق المخلوق به[2]، والقطب وهو الغوث[3].

وهناك تصنيف آخر يمكن الاستعانة به لفهم أكثر بنية المصطلح الصوفي في رسالة ابن العربي، وهو التصنيف الذي اعتمده محمد بن بريكة (ت 2019) في كتابه "التصوف الإسلامي من الرمز إلى العرفان"، والذي يتمحور حول ألوان ثلاثة من المصطلح: البسيط، والمتقابل، والعرفاني الخاص[4]. فأما المصطلحات البسيطة فمثل الأبدال، والإرادة، والأوتاد، والبواده، وكل المصطلحات التي يمكن أن تشرح باختصار بسيط لا يخل بمعانيها. وأما المصطلحات المتقابلة فمثل الإشارة/العبارة، التجريد/التفريد، التحلي/التخلي، التلوين/التمكين، الجمع/الفرق، الخلوة/الجلوة، الفناء/البقاء، وكل المصطلحات التي لا تعرف معانيها إلا بمقارنتها بما يباينها ويقابلها. وأما المصطلحات العرفانية الخاصة[5] فمثل الشجرة أو الإنسان الكامل، والاتحاد، وهي مصطلحات قليلة صعبة الترصد، وهي تركيب جديد لا عهد للمسلمين به، وقد زاده السياق والتحليل العرفانيان تعقيدا وإغراقا. ويمثل هذا اللون من المصطلحات بحسب محمد بن بريكة نظريات عرفانية قائمة بذاتها ولفهمها لا بد من بحوث متخصصة ومتعمقة.

[1] مفهوم واحد يطلق عليه باحثون مصطلحا، وباحثون مصطلحا آخر، ويجمع باحثون المصطلحين في مصطلح واحد بينهما الواو.

[2] العدل أو يقال الحق المخلوق به، فبعضهم يقول بالمصطلح الأول وبعضهم يقول بالمصطلح الثاني، وقد مزج ابن العربي بين القولين بحرف العطف.

[3] يفصل ابن العربي المصطلح الأول في كلا المصطلحين ويجعل ما بعدهما في حكم الاعتراض، بناء على الجملة التي جاءت في آخر رسالته "جملة هذه الأسماء مائتين واثنين"؛ بمعنى أن رسالته ليست فيها مائتان واثنان من المصطلحات وإنما مائتان واثنان من الأسماء، فالمصطلح الإضافي مثل (كلمة الحضرة) يعد مصطلحا واحدا لكن فيه اسمان وهكذا. وعليه فالمصطلحات المفردة عددها (174) بالإضافة إلى عشرة مصطلحات مركبة من اسمين أي عددها عشرين اسما، إضافة إلى مصطلح وصفي واحد متكون من موصوف وصفة أي يعطينا اسمين، زد عليهما المصطلحين المعطوفين بالواو (والواو ليس اسما)، إذن عددها أربعة أسماء، وزد أخيرا مصطلحين (العدل والقطب) فيكون العدد الإجمالي للأسماء هو: 174+20+4+2+2=202، أما عدد المصطلحات فهو: 174+1+10+2=187 مصطلحا.

[4] محمد بن بريكة، التصوف الإسلامي من الرمز إلى العرفان، دار المتون للنشر والطباعة والتوزيع، الجزائر، ط1، 2006، صص 219-247.

[5] مثل: العماء وختم الولاية ووحدة الوجود.

وفي المحصلة يمكن إجمال الخلاصات الخاصة ببنية المصطلح في رسالة ابن العربي في العوارض الآتية:

- كل مصطلحات الرسالة أسماء.
- جاءت جل مصطلحات الرسالة معرفة، إما بأل أو بالإضافة أو بالعلمية.
- ورد مصطلح واحد نكرة في الرسالة هو مصطلح "أرين".
- نوّع ابن العربي بين مصطلحات مذكرة (المريد) وأخرى مؤنثة (المنصة).
- نوّع في مصطلحاته بين الإفراد (الهاجس) والتثنية (الإمامان) والجمع (البدلاء).
- نوّع في صيغ مصطلحاته بين اسم الفاعل (السالك، والشاهد) والمصادر الصناعية (الألية، والأنانية، والإلهية، والفهوانية) والمصادر المطلقة (الفناء، والبقاء، والحزن، والخوف).
- اعتمد على مصطلحات متقابلة مثل: الجمع والفرق، والتخلي والتحلي.
- اعتمد على مصطلحات متقاربة في الدلالة مثل: الخوف والرجاء، والعرش والكرسي، والصفة والنعت. وأخرى من الجذر الاشتقاقي نفسه مثل: المريد والمراد، والمسافر والسفر.
- اعتمد على آلية الإضافة لتوليد المصطلحات، خاصة إضافة المصطلح إلى نفسه مثل: جمع الجمع، وملك الملك، وسر السر.
- اعتمد على ما يعرف حديثا بنظرية الحقل المعجمي مثل: الحقل الدال على الإلهام (الهاجس، والحال، والقبض، والبسط)، والحقل الدال على الطريق (المريد، والسالك، والمسافر، والسفر، والطريق).

5) الترتيب في الرسالة/القاموس

القصد بالترتيب هو "المنهج الذي يتبعه القاموسي في تنظيم مادته (سواء كانت ألفاظا عامة أو مصطلحات خاصة بعلم أو فن أو حرفة ما) وعرضها في قاموسه بغية تمكن مستعمل القاموس العثور على مراده بسرعة[1].

ويعدُّ الترتيب عنصرا ضروريا عند القاموسيين، ولهذا رتبوا مادتهم باتباع منهج معين. وقد أشار عدد من الباحثين إلى أن طرق الترتيب التي اعتمدها القدماء متنوعة، فبعض القاموسيين

[1] علي القاسمي، مداخل المعجم، مجلة اللسان العربي، ع19، ج1، 1982، ص14.

اعتمدوا الترتيب الصوتي مثل الخليل بن أحمد (ت 170ه) في قاموسه "العين"، واعتمد البعض الآخر الترتيب على حسب الأبنية مثل الفارابي (ت 350ه) في قاموسه "ديوان الأدب"، واعتمد آخرون الترتيب الألفبائي حسب أوائل الكلمة بعد التجريد مثل الزمخشري (ت 538ه) في "أساس البلاغة"، وهناك من اعتمد الترتيب الألفبائي حسب أواخر الكلمة بعد التجريد مثل الجوهري (ت 393ه) في "الصحاح"، وهناك من أخذ المعاني منهجا في الترتيب كما فعل أبو عبيد القاسم بن سلام (ت 224ه) في "الغريب المصنف"[1].

وأمَّا بخصوص قاموس اصطلاحات ابن العربي فله ترتيب خاص به، وقبل أن نحسم في المنهج الذي اعتمده ابن العربي في تنظيم مادته، حري بنا أنْ نشير إلى أنَّه في الرسالة لم يصرح بنوع المنهج الذي اتبعه في تنظيم ألفاظها، فكل ما قاله بخصوص تنظيم المادة جملة جاءت في آخر مقدمته نصها الآتي: "وقد أوردنا ذلك لفظة لفظة"[2]. لهذا سلكنا طريقين لمعرفة منهج ابن العربي، فأما الطريق الأول فهو البحث عن نص لابن العربي في مؤلف آخر يتحدث فيه عن المنهج الذي اتبعه في الرسالة، وأما الطريق الثاني فهو تأمل ألفاظ ابن العربي في الرسالة ومحاولة معرفة المنهج المتبع.

وقد توسلنا بالطريقين معا، فوصلنا إلى أنَّ ابن العربي أفرد صفحات كثيرة في كتابه "الفتوحات المكية" في مسألة شرح اصطلاحات الصوفية، وقد وضع لها عنوانا كبيرا هو "مساق المسلسل في لغة العرب: شرح ألفاظ اصطلاح القوم"، وعندما قارنا بين الرسالة (موضوع الدراسة) وصفحات الفتوحات وجدنا التعالقات الآتية:

أن جل المصطلحات المذكورة في الرسالة مذكورة في كتاب الفتوحات.

أن مصطلحات الرسالة مشروحة بطريقة مختصرة، أما مصطلحات الفتوحات فمشروحة بإسهاب.

أن ابن العربي في الفتوحات يسأل سؤالا بضمير المخاطب (أنت) ويردُّ عليه بضمير التكلم (نحن) مثلا قوله: "فإن قلتَ: وما الهاجس؟ قلنا: الهاجس هو الخاطر الأول"[3]. أما في الرسالة

[1] أحمد مختار عمر، صناعة المعجم الحديث، عالم الكتب، القاهرة، ط2، 2009، ص37.

[2] الجرجاني، التعريفات ويليه اصطلاحات الشيخ محيي الدين العربي، صص283-284.

[3] ابن العربي، الفتوحات المكية في معرفة الأسرار المالكية والملكية، تقديم: محمد عبد الرحمن المرعشلي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط1، 1998، ج2، ص131.

فيذكر اللفظة ويشرحها مباشرة مثلا قوله: "فمن ذلك الهاجس يعبرون به عن الخاطر الأول"[1].

أنَّه في الرسالة/القاموس بدأ بمصطلح الهاجس وختم بمصطلح سر السر، أما في الفتوحات فقد بدأ بسر السر وختم بالهاجس؛ بمعنى أن الترتيب في الرسالة هو عكس الترتيب في الفتوحات.

أنَّه في الفتوحات أشار إلى المنهج الذي اعتمده في ترتيب مادته والفوائد منه، وهذا نصُّ ذلك في الفتوحات: "فهذا قد بينا لك ارتباط المقامات والمراتب بضرب من التناسب وتعلق بعضها ببعض، وقليل من سلك في إيضاحها هذا المسلك، وهذا مساق المسلسل في لغات العرب. وهي طريقة غريبة أشار إليها إبراهيم بن أدهم وغيره رضي الله عنهم وبان منها شرح ألفاظ اصطلاح القوم فحصل من ذلك منها فائدتان: الواحدة معرفة ما اصطلحوا عليه، والثانية معرفة المناسبات التي بينهما"[2]. نفهم بهذا القول أن ابن العربي رتب هذه المصطلحات بنوع من الترتيب سماه بالمسلسل أخذه عن إبراهيم بن الأدهم، وقصده بالمسلسل تسلسل التعريفات بالمصطلحات، فحينما يعرف مصطلحا ما يجعل المصطلح الذي يليه في آخر التعريف أو فيه على الأقل، بالإضافة إلى أن بين المصطلح المشروح والمصطلح الذي قبله وبعده مناسبة وارتباط، أي لن تفهم المصطلح إلا في ارتباطه بالمصطلح الذي قبله وبعده، وبالمثال يتضح الأمر أكثر، قال ابن العربي: "فإن قلت: وما المسافر؟ قلنا: هو الذي سافر بفكره في المعقولات، وهو الاعتبار في الشرع فعبر من العدوة الدنيا إلى العدوة القصوى، وهو العامل السالك. فإن قلت: وما السالك؟ قلنا هو الذي مشى على المقامات بحاله لا بعلمه، وهو العمل فكان له عينا...وقد يحصل هذا للمراد والمريد. فإن قلت: وما المراد والمريد؟ قلنا: المراد عبارة عن المجذوب عن إرادته"[3]، وهكذا في باقي مصطلحاته وتعريفاتها.

إذن فرسالة اصطلاحات ابن العربي (جاءت في سبع عشرة صفحة) من حيث الكم مختصرا لما في صفحات الفتوحات (جاءت في ثمانٍ وسبعين صفحة)[4].

---

[1] الجرجاني، التعريفات ويليه اصطلاحات الشيخ محيي الدين العربي، ص284.

[2] ابن العربي، الفتوحات المكية في معرفة الأسرار المالكية والملكية، ج2، ص131.

[3] ابن العربي، الفتوحات المكية في معرفة الأسرار المالكية والملكية، ج2، ص130.

[4] تُوَاجِهُ المقارن بين رسالة ابن العربي "اصطلاحات" والصفحات التي جاءت في الفتوحات المكية بعنوان"مساق المسلسل في لغة العرب: شرح ألفاظ اصطلاح القوم" مشكلة تتجلى في: أي الكتابين سبق الآخر؟ فرغم تصريح ابن العربي بأن للفتوحات المكية نسختين، الأولى بدأها سنة (599هـ) وأتمها سنة (629هـ)، والثانية بدأها سنة (632هـ) وأتمها سنة (636هـ)، ورغم معرفتنا بأن رسالة اصطلاحات ابن العربي كتبها سنة (615هـ) فما زلنا أمام احتمالين: إمّا أن تكون الرسالة مختصرا لما في صفحات الفتوحات، فيكون الجزء الذي جاءت فيه هذه الصفحات قد كتبه ابن العربي قبل الرسالة. وإمّا أن تكون الصفحات التي في الفتوحات تفصيلا وشرحا وتطويلا لما في الرسالة، على أساس أنّ الرسالة كتبها ابن العربي أولا.

وبينت هذه المقارنة أيضا أن ابن العربي اعتمد في رسالته نوعين من الترتيب: فأما النوع الأول فهو الترتيب المسلسل مع حذفه لجل العبارات الدالة على هذا الترتيب من الرسالة اختصارا، لكن رغم ذلك بقيت إشارات تدل عليه، وأما النوع الثاني فهو الترتيب المجالي؛ أي ترتيب المصطلحات التي "تنتمي إلى مجال مفهومي واحد أو مجالات مفهومية متجاورة في منظومة مفاهيم التصوف، وتحديد موقع المفهوم في المجال المفهومي، ومعرفة المفهوم الذي قبله وبعده يساعدنا على التعرف عليه بطريقة أيسر وأسرع[1]، لهذا فترتيب المصطلحات التي تنتمي إلى مجال مفهومي واحد قرب بعضها، تساعد القارئ على فهم القاسم المشترك بينها، وكذلك الفروق الجوهرية الموجودة بينها[2]، فنجد مثلا كلّ مجموعة من المجموعات الموجودة في رسالة ابن العربي تدخل ضمن مجال مفهومي من مجالات التصوف، وهذا النوع من الترتيب المعتمد يوحي بأنَّ منظومة المصطلح في التصوف هي منظومة متماسكة أشد التماسك، وأنَّ فهمها يتطلب فهم العلاقات الكائنة بين المصطلحات. ومن ثمة نخال أن ابن العربي قد عمد في رسالته إلى ترتيب مصطلحاته وفق مجموعات تنتمي لمجال مفهومي خاص، وكل مجموعة مرتبطة بالمجموعة التي تسبقها وتليها.

وتجدر الإشارة في آخر هذا المطلب إلى مسألة مهمة تتعلق بالترتيب في علاقته بدواعي التأليف حيث أشرنا سابقا إلى أنَّ من بين دواعي التأليف عند ابن العربي الإلهام والفتح الرباني، لهذا لا نستبعد أن يكون الترتيب التي اعتمده ابن العربي في رسالته ممَّا يلقيه الله تعالى في قلبه؛ بمعنى ما قصد لهذا الترتيب عن اختيار، لكن هكذا جاءه فقيده كما جاء، وكما هو معلوم فكتاب "الفتوحات المكية" بحسب ابن العربي هو ممّا فتح الله به عليه أثناء زيارته وطوافه بمكة، وقد أكد هذا في الباب الثالث والسبعين وثلاثمائة من "الفتوحات المكية" بقوله: "فوالله ما كتبت منه حرفا إلا عن إملاء إلهي وإلقاء رباني أو نفث روحاني في روع كياني"[3].

6) التعريف في الرسالة/القاموس

يعدُّ الكشف عن معنى الألفاظ أو مفهوم المصطلحات من أهم الركائز التي تقوم عليها الصناعة القاموسية كما سماها الودغيري، وهي: جمع المادة اللغوية التي تتألف منها مدونة المعجم، ثم تحويلها إلى مداخل مرتبة بطريقة معينة، وأخيرا تعريف هذه المداخل[4]، ومن ثم فركائز

[1] علي القاسمي، عبد الرزاق الكاشاني وإسهامه في تطوير المعجمية العربية، مجلة المجمع العربي، دمشق، مج77، ج4، أكتوبر2002، ص731.

[2] نفسه، ص730.

[3] ابن العربي، الفتوحات المكية في معرفة الأسرار المالكية والملكية، ج3، ص442.

[4] انظر، عبد العلي الودغيري، قضايا المعجم العربي في كتابات ابن الطيب الشرقي، منشورات عكاظ، الرباط، ط1، 1989.

القاموس ثلاثة هي بالتبع: مادة القاموس وترتيب المداخل والتعريف. ويحتل التعريف بؤرة اهتمام صانع القاموس ومستعمله ودارسه؛ لإنَّ التعريف هو الغاية والهدف.

وقد أشار ابن العربي إلى أنه ألَّف هذه الرسالة تلبية لطلب (صفيه) بشرح ألفاظ الصوفية؛ بمعنى أنَّه ألّف الرسالة لشرح أهم مصطلحات الصوفية، وبما أن القارئ غايته فهم هذه المصطلحات الصوفية في كليتها، فقد اقتصر ابن العربي في رسالته على ما عدَّه الأهم فالأهم من المصطلحات، ونظمها وفق ذاك الترتيب بنوعيه المتسلسل والمجالي.

ومن المعلوم عند المهتمين بالصناعة القاموسية أنَّ طرق الكشف عن المعنى متنوعة[1] منها الشرح بالتعريف، والشرح بذكر الدلالتين اللغوية والاصطلاحية، والشرح بتحديد المكونات الدلالية، والشرح بذكر سياقات الكلمة، والشرح بالمرادف، والشرح بذكر المضاد، والشرح بالمثال، والشرح بالصورة إلخ. ومن هذه الطرق هناك طرق أساس وطرق ثانوية أو مساعدة، وكلما أمكن الجمع بينها أو بين أكثرها في المدخل كان أفضل، وإنْ كان الغالب الاكتفاء ببعضها ودمج بعضها الآخر[2].

وإذ عدنا إلى رسالة "اصطلاحات" سنجد أنّ ابن العربي عرّف مصطلحاته بالطرق التالية: الأولى الشرح بالتعريف والثانية الشرح بالمرادف والثالثة الشرح بالشواهد والأمثلة التوضيحية، فأما الشرح بالتعريف فالقصد به شرح الكلمة بواسطة كلمات أخرى؛ بمعنى أنه يعيد التعبير عن المعنى بألفاظ أخرى، ومن المصطلحات التي شرحها ابن العربي وفق هذه الطريقة: المريد، والمراد، والسالك، والمسافر، والسفر. وأما الشرح بالمرادف فيتم ذلك بوضع كلمة واحدة مقابل كلمة أخرى[3]، وقد استعمل ابن العربي هذا اللون من التعريف في قاموسه في المصطلحات الآتية: القطب، والغراب، والحرف، والشجرة. وأما الشرح بالشواهد أو الأمثلة التوضيحية[4] فالقصد به استعمال عبارات، أو جمل، أو أبيات، أو أمثلة سائرة لتوضيح المصطلح أو اللفظ المعرف في القاموس. وقد استخدم ابن العربي الشواهد القرآنية لتوضيح بعض المصطلحات، واستعمل كذلك الأعداد لدعم المعلومات الواردة في التعريف وتعزيزها.

[1] أحمد مختار عمر، صناعة المعجم الحديث، ص120.

[2] أحمد مختار عمر، صناعة المعجم الحديث، ص121.

[3] عبد العلي الودغيري، قضايا المعجم العربي في كتابات ابن الطيب الشرقي، ص311.

[4] لا يوجد سوى ثلاثة شواهد قرآنية في رسالة ابن العربي بأكملها، وليس ثمة شواهد من الحديث النبوي، أو شواهد شعرية. وقد استعمل الشواهد القرآنية الثلاثة شاهدا للمعنى دون اللفظ.

يتبين من خلال تتبعنا للطرق التي اعتمدها ابن العربي في شرح مصطلحات رسالته أنه نوّع في طرق شرحها بين شرح بالتعريف -وهو الغالب- وشرح بالمرادف، وشرح بالشاهد. وأن تعريفاته متفاوتة من حيث الطول، ولكن أغلبها مختصرة. إضافة إلى اشتمال عدد من تعريفاته على الكلمة المعرفة أو مشتقاتها، مثل قوله: "الوجود: وجدان الحق في الوجود"[1]. إضافة إلى عدم مراعاته النوع الكلامي للكلمة المعرفة، حيث يبدأ تارة تعريف الأسماء بالفعل، وتارة بالحرف، وتارة باللفظة المعرَّفَة نفسها مثل قوله: الغيبة: غيبة القلب. أو قوله: الحضور: حضور القلب[2]. ويعمد في تعريفات كثيرة إلى تكرار بعض الكلمات في أول التعريف، من قبيل تكرار لفظة رؤية مثل قوله: "البقاء: رؤية العبد قيام الله على كل شيء. والفناء: رؤية العبد لفعله لقيام الله على ذلك"[3]. وتشتمل تعريفاته على تقسيمات وفروع للمصطلح المعرف، وفي مرات نجد أكثر من تعريف للمصطلح الواحد كما فعل في تعريفه للهاجس فهو الخاطر الأول والخاطر الرباني والسبب الأول ونقر الخاطر[4]. وشمل تعريف مصطلح الأدب على أربعة مصطلحات هي بالتبع: أدب الشريعة وأدب الخدمة وأدب الحق والأديب[5]. ولا تخلو بعض تعريفاته من تعليقات مثل قوله: "أما الشطح: عبارة عن كلمة عليها رائحة رعونة ودعوى وهي نادرة أن توجد من المحققين"[6].

وجاءت أغلب تعريفات ابن العربي غامضة وهذا راجع للاختصار الشديد. لذ وجب الرجوع إلى كتاب الفتوحات لتبين مواضع الاختصار والحذف، وقد زاد تعريفاته غموضا نهجه التسلسلي حيث يفسر مرات اللفظة بلفظة أشد غموضا، نكتفي بالتمثيل على ما قلنا بالإحالة على شرحه لمصطلح الشجرة بالإنسان الكامل. وهذا الاختصار الشديد جعل تعريفات ابن العربي للمصطلحات الصوفية تعريفات غير ناجزة وغير كاملة بسبب الإضمار والحذف والإيجاز والتكثيف الدلالي، ولمزيد بيان هاكم مقارنة بين تعريف مصطلح النوالة في "الفتوحات المكية" وفي رسالة "اصطلاحات"، قال ابن العربي في الفتوحات: "فإن قلت: وما النوالة؟ قلنا: النوالة هي التي تخص الأفراد من الرجال وقد تكون الخلع مطلقةً ومع هذا فهم في الحجاب"[7]. وقال في الرسالة:

[1] الجرجاني، التعريفات ويليه اصطلاحات الشيخ محيي الدين العربي، ص287.
[2] نفسه، ص288.
[3] الجرجاني، التعريفات ويليه اصطلاحات الشيخ محيي الدين العربي، ص288.
[4] نفسه، ص284.
[5] نفسه، ص285.
[6] الجرجاني، التعريفات ويليه اصطلاحات الشيخ محيي الدين العربي، ص285.
[7] ابن العربي، الفتوحات المكية في معرفة الأسرار المالكية والملكية، ج3، ص127.

"النوالة: الخلع التي تخص الأفراد وقد يكون الخلع المطلقة"[1]. فبناء على هذه المقارنة نجد تعريفات ابن العربي في رسالته غامضة مقارنة بما كتبه في "الفتوحات المكية"، لهذا نؤكد مرة أخرى على ضرورة العودة إلى صفحات الفتوحات لفهم ما جاء في الرسالة.

تركيب

إنَّ الخوض في المصطلح الصوفي يجعل الباحث دائم الشك في ما وصل إليه من استنتاجات، ويجعله مدمنا على قراءة النصوص الصوفية ومصطلحاتها، وإعادة قراءتها كلما سنحت الفرصة واستجد جديد.

لذا فأول ما يلفت انتباه المتتبع للمصطلح الصوفي أنَّه مصطلح زئبقيّ تتغير دلالته حسب التجربة العرفانية، وأنَّ لغة المتصوفة لغة متجددة لتجدد الأحوال والمقامات والمشاهدات. وهذه الطبيعة التي يتميز بها المصطلح الصوفي هي ما تجذب الدارسين إلى بذل الجهد لاكتناه دلالاته وتوضيح رموزه وتقريب إشاراته. وقد عمد أئمة التصوف منذ القديم إلى تأليف قواميس ورسائل لشرح مصطلحاتهم وتقريبها لمريديهم، دفعا للبس والتأويل الخاطئ من جهة، وإضفاء للشرعية على علمهم من جهة أخرى.

وقد تبين من خلال تفاصيل البحث أنَّ ابن العربي كتب هذه الرسالة/القاموس المتخصص والمختصر تلبية لطلب تلميذه وصفيه الكريم عبد الله بن بدر الحبشي. وتبين أيضا من خلال دراسة بنية المصطلح الصوفي في رسالة "اصطلاحات" لابن العربي إلى ورودها على أشكال عدة:

- مائة وأربعة وسبعون مصطلحا مفردا.
- عشرة مصطلحات ذات تركيب إضافي.
- مصطلح واحد ذو تركيب وصفي.
- مصطلح واحد معقد.
- مصطلحان جاءا بالعطف.

وهذه النتائج التي وصلنا إليها من خلال تتبع مصطلحات ابن العربي بوصفها مداخل قاموسية تبين أن المصطلح المفرد هو الغالب في مصطلحات ابن العربي في رسالته، لكن هذا لا يعني البتة أنَّ هذا النوع من المصطلحات هو الغالب في كل مؤلفات ابن العربي، بل خلصت سعاد

[1] الجرجاني، التعريفات ويليه اصطلاحات الشيخ محيي الدين العربي، ص294.

الحكيم في كتابها "ابن العربي ومولد لغة جديدة" إلى أنَّه أوجد لغة جديدة سِمتها الأساس هي الإضافة، وأنَّ كلّ الكتابات بعده أصبحت تنهل منه، إذ أصبحت الإضافة لغة الصوفية دون منازع[1]. فحسب سعاد الحكيم قد حقق ابن العربي نقلة على المستوى اللغوي بتحويله اللغة الصوفية من الاصطلاحات المبنية على اللفظ الواحد المفرد، إلى مصطلح أخذ شكل العبارة، وقد حصرت أشكال العبارة في ثلاثة: فأما الشكل الأول فهو الإضافة مثل نهر القرآن وبحر الأروح، وأما الشكل الثاني فهو النسبة مثل ولي عيسوي وتجل ذاتي، وأما الشكل الثالث فهو الوصف مثل الأرض الواسعة. وهكذا صورت لغة ابن العربي بحسب سعاد الحكيم شهوده بالكلمات، شهود يرى الوجود حقائق مفردة، وتوجد مفردة في عالم ثابت معقول، ولكنها في عالم الوجود الحسي لا توجد مفردة أبدا، وإنما توجد مركبة، عالم الموجودات الذي هو عالم تركيب؛ عالم إضافات ونسب وصفات[2]. وقد أفردت سعاد الحكيم حيزا كبيرا من كتابها (تقريبا 104 صفحة) لتعداد المصطلحات المضافة.

ووصلنا أيضا إلى أن ابن العربي قد أفرد صفحات كثيرة في كتابه "الفتوحات المكية" في مسألة شرح اصطلاحات الصوفية، وقد وضع لها عنوانا بارزا هو "مساق المسلسل في لغة العرب: شرح ألفاظ اصطلاح القوم"، وعندما قارنا بين الرسالة (موضوع الدراسة) وصفحات "الفتوحات" تبين أن جلَّ مصطلحات الرسالة مذكورة في "الفتوحات"، وأن مصطلحات الرسالة مشروحة بطريقة مختصرة، وفي المقابل مصطلحات "الفتوحات" مشروحة بإسهاب؛ وبناء على هذا اعتبرنا رسالة اصطلاحات ابن العربي من حيث الكم مختصرا لما في صفحات "الفتوحات"، لهذا أكدنا ضرورة العودة إلى ما كتبه ابن العربي في الفتوحات لفهم ما جاء في الرسالة.

ومن النتائج المهمة كذلك أن تعريفات ابن العربي لمصطلحاته ملأى بالمصطلحات؛ بمعنى أنّ رسالته مليء بالمصطلحات غير المشروحة وهي في الغالب مصطلحات ذات تركيب إضافي، لورودها أثناء التعريفات، فنجد مثلا تحت مصطلح الأدب المصطلحات الآتية: أدب الشريعة، وأدب الخدمة وأدب الحق والأديب. ونجد تحت مصطلح الهاجس: الخاطر الأول والخاطر الرباني والسبب الأول ونقر الخاطر والإرادة والهمة، والعزم، والقصد، والنية. ونجد تحت مصطلح المطلع: العماء والحيرة وحجاب العزة وعالم الكون. ونجد تحت مصطلح العقاب: القلم والعقل الأول، إلخ.

[1] سعاد الحكيم، ابن العربي ومولد لغة جديدة، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، بيروت، ط1، 1991، ص90.
[2] نفسه، صص79-80.

ومن النتائج التي وصلنا إليها عند مقارنة مصطلحات ابن العربي مع دلالاتها اللغوية، أنه جعل المصطلح رمزا لتعريفه، فالشجرة عنده هي رمز للإنسان الكامل[1]، وبناء على هذا يمكن اعتبار اختصار التعريفات وغموضها مقصودا لذاته، خاصة إذا علمنا أنَّ تأليف الرسالة كان إجابة لطلب عبد الله بن بدر الحبشي المعروف بقربه لشيخه، فكأن هذه الرسالة/القاموس عبارة عن إشارات لطيفة ودقيقة ورسالة مشفرة[2] بين ابن العربي وتلميذه؛ بمعنى أنه لجأ إلى الرمز والاختصار والإغراب قصدا، فهو لم يكن يكتب للعامة بل للخاصة العارفين. وإلى جانب هذا فقد جعل كثيرا من المصطلحات من قبيل الغيم والنجم والطير والشجر كنايات، ولكن هذه الكنايات لم يتخذها اعتباطا ولا اصطلاحا محضا، بل في الواقع جرد هذه الأشياء من كينونتها وجعلها صفات. فالغراب مثلا لم يعد طائرا بل إشارة إلى السواد والغربة[3].

وهذا ما جعل المصطلح الصوفي يختلف عن باقي مصطلحات العلوم والفنون إذ إنه ليس ناتجا عن العقل أو الفكر، وإنما ناتج عن ما يتذوقه الصوفي ويشاهده، فهو إذن من ثمار التجربة الروحية القلبية النفسية[4] التي عاشها الصوفي ويعيشها؛ بمعنى آخر فالمصطلح الصوفي يختلف عن باقي المصطلحات في أداة المعرفة ووسيلة الإدراك وليس في وسيلة التعبير، فقد يحتاج الصوفي إلى العقل وأساليبه ليعبر عما يجد في ذاته أو عما كوشف به ولكنه قطعا لم يدرك ذلك الوجد أو الكشف بالعقل، وهذا يختلف عن جميع العلوم والمعارف الإنسانية التي تعتمد العقل والفكر والنظر وسيلة للإدراك والمعرفة، وهذا ما يؤكد البون الشاسع بين المصطلح الصوفي وباقي المصطلحات المبنية على أسس عقلية تفترض أوليات بديهية وتسلسلا منطقيا يتم على أساسه

[1] استفاد ابن العربي من صفة التشاجر والارتفاع في الشجرة ليكني بها عن الإنسان الكامل. ونذهب أبعد من ذلك فنقول إن الشجرة بما تتمتع من كونها وحدة ذاتية لاحظها ابن العربي، دفعته إلى تشبيه الإنسان الكامل بها. فالشجرة هي وحدة متكاملة في نوعها؛ فيها الجذر والساق والأغصان والأوراق والزهر والثمر. بل أكثر من ذلك فيها بذر الشجر يتولد منها. إذن هي كاملة في نوعها النباتي، وهذا على الأرجح ما دفع ابن العربي إلى تشبيه الإنسان الكامل بها. انظر، سعاد الحكيم، "المعجم الصوفي: الحكمة في حدود الكلمة"، دندرة للطباعة والنشر، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، بيروت، ط1، 1981، مصطلح الشجرة.

[2] لعل الأسباب الحقيقية وراء ستر المعرفة الصوفية على عامة الناس تكمن أولا في الخوف من علماء الظاهر الذين أفتوا بخروج الصوفية من الدين ومن ثم لاحقتهم السلطة السياسية، ثانيا إغلاق الباب على المتلقين من عامة الناس الذين لم تبلغ أفهامهم درك هذه الأسرار، ثالثا الخوف من أن يدعي علومهم من ليس منهم، كما هو شأن الأدعياء في كل نحلة، أخيرا قصور اللغة التواضعية التي تند عن الكشف عما هو من جنس المذوقات. انظر، ميلود عزوز، أثر الذوق الصوفي في الثراء اللغوي والأدبي، رسالة دكتوراة بإشراف محمد عباس، جامعة أبي بكر بلقايد/تلمسان، كلية الآداب واللغات، الجزائر، السنة الجامعية 2013/2012، ص118.

[3] سعاد الحكيم، " المعجم الصوفي: الحكمة في حدود الكلمة"، مصطلح الغراب.

[4] إن علاقة التصوف بالنفس وأحوالها واضحة جالية، ومن هنا كانت أكثر اصطلاحاتهم مستمدة من معجم النفس، وأكثر ذلك من القرآن الكريم؛ كتاب النفس ودليلها الذي وضعه صانعها عز وجل، وهو أدرى بها. انظر، يحيى عبد الرؤوف جبر، اصطلاحات الصوفية: أبعاد جديدة في التطور الدلالي، مجلة معهد المخطوطات العربية، القاهرة، مج 41، ج1، مايو1997، ص188.

تحديد الشيء المراد تعريفه ثم اختيار المصطلح المناسب لذلك التعريف، وبين اصطلاحات العلوم الصوفية القائمة على أساس ما يفيضه الحق تعالى على قلب الصوفي من مذاقات ومعانٍ وفتوحات، ونتيجة هذا التباين في وسيلة الإدراك نجد المعنى الاصطلاحي في العلوم القائمة على أساس العقل تتحدد وتصبح كأنها قاعدة ثابتة بين أفراد المجموعة التي تعارفت على تلك المصطلحات بينما نجد أن المعنى الاصطلاحي متغيرا ومتجددا عند الصوفية بين جيل و آخر، بل في أحيان كثيرة نجد أنَّ التغير والتجدد يحصل عند الصوفي نفسه[1].

[1] عبد الكريم الكسنزان الحسيني، موسوعة الكسنزان فما اصطلح عليه أهل التصوف والعرفان، دار آية، بيروت، ط1، 2005، ج1، صص37-38.

لائحة المصادر والمراجع

- ابن العربي، الفتوحات المكية في معرفة الأسرار المالكية والملكية، تقديم: محمد عبد الرحمن المرعشلي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط1، 1998.
- ابن العربي، الديوان الكبير، تحقيق: عبد الإله بن عرفة، دار الآداب، بيروت، ط1، 2018.
- أبو بكر محمد الكلاباذي، التعرف لمذهب أهل التصوف، ضبطه وعلق عليه وخرج أحاديثه: أحمد شمس الدين، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 1993.
- أبو قاسم عبد الكريم القشيري، الرسالة القشيرية، تحقيق: معروف مصطفى زريق، المكتبة العصرية، بيروت، ط1، 2001.
- أحمد مختار عمر، صناعة المعجم الحديث، عالم الكتب، القاهرة، ط2، 2009.
- ساعد خميسي، ابن العربي المسافر العائد، الدار العربية للعلوم ناشرون، منشورات الاختلاف، الجزائر، ط1، 2010.
- سعاد الحكيم، المعجم الصوفي: الحكمة في حدود الكلمة، دندرة للطباعة والنشر، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، بيروت، ط1، 1981.
- سعاد الحكيم، ابن العربي ومولد لغة جديدة، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، بيروت، ط1، 1991.
- سعاد كوريم، الدراسة المفهومية: مقاربة تصورية منهجية، مجلة إسلامية المعرفة، العدد 60، ربيع2010.
- الشاهد البوشيخي، مصطلحات نقدية وبلاغية في كتاب البيان والتبين للجاحظ، دار القلم للنشر والتوزيع، الكويت، ط2، 1995.
- الشريف الجرجاني، التعريفات ويليه اصطلاحات الشيخ محيي الدين العربي، مكتبة لبنان، بيروت، طبعة جديدة، 1985.

- عبد الجبار النفري، المواقف والمخاطبات: نصوص فلسفية، تحقيق: آرتر أربري، تقديم وتعليق: عبد القادر محمود، مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب، ط1، 1985.
- عبد العلي الودغيري، قضايا المعجم العربي في كتابات ابن الطيب الشرقي، منشورات عكاظ، الرباط، ط1، 1989.
- عبد الفتاح كيليطو، الحكاية والتأويل: دراسات في السرد العربي، دار توبقال للنشر، الدار البيضاء، ط1، 1988.
- عبد الكريم الكسنزان الحسيني، موسوعة الكسنزان فما اصطلح عليه أهل التصوف والعرفان، دار آية، بيروت، ط1، 2005.
- عبد الوهاب المسيري، في الخطاب والمصطلح الصهيوني: دراسة نظرية وتطبيقية، دار الشروق، القاهرة، ط1، 2003.
- علي القاسمي، عبد الرزاق الكاشاني وإسهامه في تطوير المعجمية العربية، مجلة المجمع العربي، دمشق، مج77، ج4، أكتوبر2002.
- محمد بن بريكة، التصوف الإسلامي من الرمز إلى العرفان، دار المتون للنشر والطباعة والتوزيع، الجزائر، ط1، 2006.
- مصطفى سلوي، عتبات النص: المفهوم و الموقعية والوظائف، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية، وجدة، ط1 2003.
- مصطفى طاهر الحيادرة، من قضايا المصطلح اللغوي العربي، عالم الكتب الحديثة، عمان، ط1، 2003.
- ميلود عزوز، أثر الذوق الصوفي في الثراء اللغوي والأدبي، رسالة دكتوراة بإشراف محمد عباس، جامعة أبي بكر بلقايد/تلمسان، كلية الآداب واللغات، الجزائر، السنة الجامعية 2013/2012.
- يحيى عبد الرؤوف جبر، اصطلاحات الصوفية: أبعاد جديدة في التطور الدلالي، مجلة معهد المخطوطات العربية، القاهرة، مج 41، ج1، مايو1997.